كمال النّفس الإنسانيّة
في فكر محمّد تقي مصباح اليزدي

د. عبدالحسين طاهر الربيعي

ملخص البحث

يدرس البحث حقيقة النفس الانسانية- عند العلامة الشيخ محمد تقي مصباح اليزدي- والسبيل الذي يؤدي بنا إلى بلوغ الكمال، ولا بد من التنويه أنَّ عنوان هذه الدراسة لا ينبغي أن ينصرف على الكمال المطلق أو العصمة التي لا تتأتى إلا لمن وهبوا هذا الأمر، بل الذي قصده اليزدي، وسعى البحث الى بيانه، هو الكمال الممكن المتاح للإنسان، والذي يكون محلاً للتفاوت بين بني البشر، وبتعبير اليزدي: «هو بحث حول الانسان من زاوية كونه موجوداً يقبل التكامل». أي أن الإنسان- بتوافر المعطيات المهيئة لهذا التكامل- بالجد، والاجتهاد، والتخلي عن الأهداف النفعية الضيقة قد يصل إلى هذا التكامل، بعد معرفة النفس حق معرفتها. وقد تكون البحث من محورين متلازمين: الأول معرفة النفس، أو الذات وبنائها بناءً إسلامياً ميسراً وممكناً مع لحاظ تفاوت الناس في بلوغ هذه الغاية. أما الثاني، فقد استوعب كمال النفس معنىً ومفهوماً ومصداقاً مع بيان ميزات الكمال الإنساني، كما فهمها المؤلف.

الكلمات المفتاحية: حقيقة النفس، معرفة النفس، كمال النفس، اللذة والكمال

المقدمة

الحمد لله ربّ العالمين، وأفضل الصلاة وأتمّ التسليم على المصطفى الأمين محمّد بن عبد الله وعلى آله الطيبين الطاهرين الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، ورضي الله عن أصحابه المنتجبين الذين جاهدوا معه في الله حقّ جهاده وما بدلوا تبد يلاً.

وبعد، فقد راقني ما تضمّنته كتب آية الله محمّد تقي مصباح اليزدي من حيث المضامين، وأسلوب تقديم معانيه وعرضها عرضاً شائقاً يغري متلقّيها بمتابعتها والتوجّه إليها لما تحتويه من سهولة التقديم ومحاورة المتلقّي واستدراجه- عبر الشواهد والأدلّة الساطعة- نحو دائرة القناعة والتأثّر.

وممّا ترك فيَّ أثراً بارزاً من هذه الكتابات، محاضراته- التي ضمّنها كتابٌ صغيرٌ في حجمه كبيرٌ في غرضه- حول معرفة الذات والدعوة إلى السلوك الممنهج الحصين لمعرفة النّفس عبر أساليبٍ يصل بها السالك إلى كمال النّفس متّبعاً المنهج الذي سلكه القرآن لهذا السبيل متخلّياً عن سواه من الكمالات المادّيّة التي تفارق هذه الغاية (كمال النّفس).

ومن اللافت حقّاً أنّ هذا المفكّر قد عبّر عن هذه المفهومات والحقائق العميقة والشائكة بأساليبٍ طيّعةٍ عبر حواراتٍ واستدلالاتٍ يفهمها الخاصّ والعامّ، لما اتّسم به هذا المفكّر من قدرة على التأثير في متلقّيه، ولإحاطته بالأغراض والمعاني التي يقدّمها لقرائه،

وقد كان لثقافته الوسيعة وتعمّقه في النصوص القرآنيّة وما يرتبط بها من شرحٍ وتأويلٍ بالغ الأثر في أسلوبه ومعانيه ومتبنّياته الفكريّة.

ولذا حاولت أن أذكر بهذا الفهم المتقدّم- من لدن المؤلّف المصباح اليزدي- لحقيقة النّفس الإنسانيّة، والسبيل الذي يؤدّي بنا إلى بلوغها الكمال، وليكون هذا التذكير نافعاً، وقد قال جلّ ذكره: ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرى﴾[1].

ولا بدّ لي من أن أنوّه بأنّ عنوان هذه القراءة الموجزة – كمال النّفس في فكر اليزدي- لا ينبغي أن ينصرف إلى الكمال المطلق أو العصمة التي لا تتأتّى إلّا لمن وهبوا هذا الأمر، بل الذي قصده المؤلّف وسعينا إلى تقديمه والتذكير به هو الكمال المتاح للإنسان، وقد يكون محلّ التفاوت بينهم في بلوغ درجة من درجات هذا الكمال، وكما يقول عنه: «هو البحث حول الإنسان من زاوية كونه موجوداً يقبل التكامل»[2]، أي: أنّ الإنسان- بتوافر المعطيات المهيّئة لهذا التكامل- بالجدّ والاجتهاد والتخلّي عن الأهداف النفعيّة الضيّقة، قد يصل إلى هذا التكامل بعد معرفة النّفس حقّ معرفتها. وقد عبّر الشيخ المصباح عن هذا الموضوع الشائك ذي الأبعاد الفلسفيّة والعرفانيّة أو الصوفيّة بأسلوبٍ سهلٍ آسر ومنحىً أخّاذٍ، يمكن وصفه بالسهل الممتنع.

وقد آثرت الاختصار ـ في هذا البحث ـ ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، لأنّ الغاية أن ألفت القرّاء إلى هذه الحقيقة- كمال النّفس

(1) سورة الأعلى، الآية: ٩.

(2) معرفة الذات لبنائها الجديد: ١٠.

الإنسانيّة- المغيبة عند كثيرين، لارتباطها بمعانٍ فلسفيّةٍ وموارد روحانيةٍ يظنّ أغلب الناس أنّ الخوض بها غير مجدٍ، لكنّها- أي كمال النّفس- ممكنةٌ بعد تأمّل النّفس والسعي إلى معرفتها، إذ هي الغاية التي أرادها الله للإنسان وليس سواها.

لذا بادرت إلى تقديم هذا الجهد المتواضع لعلّ فيه تسليطاً للضوء على بقعةٍ أو زاويةٍ من آفاق فكر هذا العلّامة لا سيّما زاوية النّفس الإنسانيّة وكمالها، وقد آثرت أن تجئ هذه الدراسة بمحورين متلازمين:

الأوّل: معرفة النّفس أو الذات وبنائها بناءً إسلاميّاً ميسراً وممكناً مع لحاظ تفاوت الناس في بلوغ هذه الغاية.

الثاني: استيعاب كمال النّفس معنىً ومفهوماً ومصداقاً مع بيان ميّزات الكمال الإنساني- كما فهمها المؤلّف-.

وأخيراً كيف فرّق المفكّر اليزدي بين كمال النّفس والكمالات الأخرى؟ وكيف ربط بين العلم والتكامل؟ وكل ذلك جرى بإيجازٍ شديدٍ.

وآمل أن يلقى هذا العرض الموجز قبولاً، وأن يسهم في حثّ القرّاء على متابعة المنجز الفكري للعلامة محمّد تقي مصباح اليزدي، وما توفيقي إلّا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب.

المبحث الأوّل

معرفة النّفس

النّفس لغةً، يقول الراغب الأصفهاني: النّفس الروح في قوله تعالى: «أخرجوا أنفسكم» وقال تعالى: «تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك»، وقال الرازي: «النّفس: الروح، يقال خرجت نفسه[1].

أمّا اصطلاحاً، فقد تعدّدت تعريفات النّفس، وليس بوسعنا أن نأتي بها مفصلةً في هذا البحث الموجز، لكنّنا نكتفي بأشهر هذه التعريفات مستغنين به عمّا سواه.

يقول الشيخ البهائي (ت 1031هـ): «إنّها جوهرٌ مجرّدٌ من المادّة الجسمانيّة والعوارض الجسمانيّة، لها تعلّقٌ بالبدن تعلّق التدبير والتصرّف، والموت هو قطع هذا التعلّق...».

ربما في هذا التعريف نظرٌ عند بعض المحققين لتعارضه مع مفهوم الموت، إذ لا يعدّ انقطاعاً تامّاً، بل هو نقلةٌ إلى عالم أرحب وأفسح حيث تنتقل النّفس إلى خالقها ومتوفّيها بدلالة قوله عزّ وجلّ: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها وَ الَّتِي لَمْ تَمُتْ في مَنامِها﴾[2].

وتجرّد النّفس هو عدم كونها عنصراً مادّياً له زمانٌ ومكانٌ، أو ينقسم ويتجزّأ، والآيات الدّالة على تجرّدها كثيرةٌ، كقوله تعالى: ﴿وَ لا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ في سَبيلِ اللَّهِ أَمْواتٌ بَلْ أَحْياءٌ وَ لكِنْ لا

(1) مفردات غريب القرآن: ٥٠١، وانظر كذلك : معجم العين: ٢/ ٦٦، ولسان العرب: ٦/ ٢٣٤، ومختار الصحاح: ٦٧٢.

(2) سورة الزمر، الآية: ٤٢.

تَشْعُرُونَ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ* ارْجِعي إِلى رَبِّك راضِيَةً مَرْضِيَّةً*فَادْخُلي في عِبادي*وَ ادْخُلي جَنَّتي﴾[2] وهذا ما يؤكّد أنّ الإنسان قد يكون حيّاً بينما جسده في التراب، وثمّة آياتٌ تؤكّد تعذيب الله للكافرين، ولكنّ أجسادهم ميتةٌ في القبور، فلنتأمل هذا التعبير القرآني: ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ* النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُواْ آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ..﴾[3] ، وهو في القرآن كثيرٌ.

أمّا ما ورد في السنة النبويّة المطهّرة على تأكيد تجرّد النّفس، فهو أكثر من أن يحصى، قال ﷺ: «من صلّى عليَّ عند قبري سمعته، ومن صلّى عليَّ من بعيد بُلّغته»[4].

إذن، النّفس أو الروح لا تخضع للانقسام والتجزّؤ، لأنّ هاتين الخاصيتين من لوازم المادّة المحدودة المتناهية بيد أنّ عدم الانقسام ليس مقصوراً على النّفس، بل هو سائرٌ على الصفات النّفسيّة كالحبّ والكره والإصرار والإرادة وسواها، إذ كلّ واحدٍ من هذا لا يمكن تجزئته»[5].

ومن الجدير بالذكر- ونحن نلخّص هذه المباحث- أن نشير إلى أنّ النّفس والبدن – وعلى الرغم من أنّ كلًّا منهما في عالم مستقلٍ إلّا أنّهما متداخلان في التأثير، فالنّفس تتأثّر بما يصيب

(1) سورة البقرة، الآية: ١٥٤.
(2) سورة الفجر، الآيات: 27 ــ ٣٠.
(3) سورة غافر، الآية: ٤٦.
(4) تصحيح الاعتقاد: ٩١.
(5) ينظر: محاضرات في الالهيات (ملخص): ٤١١.

البدن، فينعكس هذا هيأةً نفسيّة أو حالةً أو صفةً متأثرةً بما حصل للبدن، والعكس يحصل عندما تتأثّر النّفس أو تنفعل، إذ يؤثّر ذلك في بعض أعضاء الجسد، والقرآن الكريم يؤكّد هذا التأثّر والتأثير المتبادل بين الجسد والروح قائلاً: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَ قُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ اللَّهِ﴾[1].

ومن مصاديق هذا التأثير المتبادل ما تواتر عن الأئمّة عليهم السلام والصالحين إذا توجهوا لله سبحانه وتعالى أصفرّت وجوههم وتغيّرت ألوانهم وارتعدت فرائصهم.

طبيعة النّفس، وكيف تُجابَه؟

أكّد العلماء والمحقّقون- استناداً إلى القرآن الكريم- أنّ النّفس تدفع صاحبها إلى الرذائل والانحراف عن الصواب، فإذا لم تُجابَه وتُردَع عن المعاصي فستؤدّي به إلى الضلال المبين، وقد قال (سبحانه وتعالى) مؤكّداً هذه الطبيعة على لسان نبيّه يوسف عليه السلام: ﴿وَ ما أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ ما رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[2]. فالنّفس تدعو إلى مشتهياتها من السيئات، فإذا كفّت عن السوء فذلك برحمة الله، كما يقول أحد المفسّرين[3]، فالنّفس مفطورةٌ على الإفساد في الأرض، وتحري الموبقات، وتدعو صاحبها إليها، لكنّ العبد يحاول جاهداً أن يكبح جماح هذه النّفس

عبدالحسين طاهر الربيعي

(1) سورة الزمر، الآية: ٢٣.
(2) سورة يوسف، الآية: ٥٣.
(3) تفسير الميزان: ١١/ ١٩٨.

الأمـارة بالسـوء، لـذا فالوصـول إلـى تهذيـب النّفـس، ومن ثـمّ كمالها، هـو نتيجـة معرفتها، حتّـى أنَّ رجلا قال لرسـول الله ﷺ: «كيف الطريق إلـى معرفة الحـقّ»؟ قـال ﷺ: «معرفـة النّفس».

النّفس عند العلامة اليزدي

بعـد هـذا التمهيـد الموجز نعـود لنتأمّل مـا قدّمه العلامـة مصباح اليـزدي حـول هـذا الموضـوع، فهو بـدلاً مـن أن يخوض في المسـائل الفلسـفيّة والعرفانيّـة وأفـكار المتصوفـة ومواجدهـم ومـا إلـى ذلـك، قـدّم لنـا مـا يقصد بكمـال النّفـس تقديمـاً واضحاً مـدلّاً علـى إحاطته بالموضـوع واختيـاره أسـلوباً معبّـراً عـن معانـي النّفـس وكمالهـا بمـا وهـب مـن بيـانٍ وإيضـاحٍ لا مزيـد عليـه، قال تعالـى في محكـم كتابه: ﴿يـا أَيُّهَـا الْإِنْسـانُ إِنَّكَ كادِحٌ إِلـى رَبِّكَ كَدْحـاً فَمُلاقيـهِ﴾[1]، لو تأمّلنا هـذه الآيـة المباركـة، واهتدينـا إلـى مقاصـد هذا النـداء الإلهـي الكوني الموجّـه إلينـا، أدركنـا المرتبة العاليـة والمنزلـة الرفيعة التي يـؤول إليها الإنسـان بعـد هذا السّـلوك السـويّ المتوجّه إلـى الله ﴿كادِحٌ إِلـى رَبِّكَ كَدْحـاً﴾، والمـؤدّي- حتمـاً- إلـى هـذه الغايـة الكبـرى، وهـي بلـوغ الكمـال، بدلالـة قولـه تعالـى: (فملاقيـه)، وهـو الفـوز والفـلاح الـذي يتحـدّث عنـه القـرآن ويؤكّـده فـي كثيرٍ مـن الآيـات البيّنات.

فمـا السـبيل الـذي يوصلنـا إلـى هـذه الضالـة المنشـودة؟ وهـل يتـاح هـذا لأيّ إنسـانٍ؟ وأنّـى له ذلـك، وهـذه العقبات تقع فـي طريقه وتحـول بيـن النّفـس الإنسـانيّة وكمالها؟

(1) سورة الانشقاق، الآية: ٦.

لقد وردت كلمة النّفس في القرآن الكريم في مواضع كثيرةٍ، منها قوله تعالى: ﴿وَ نَفْسٍ وَ ما سَوَّاها*فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَ تَقْواها*قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها*وَ قَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها﴾[1]. في هذا النص المقدّس أسند إلهام الفجور والتقوى إلى خالق النّفس ﴿وَ ما سَوَّاها﴾ الله سبحانه بلحاظ تقديم الفجور على التقوى لشيوعه بين العباد وقلّة سالكي التقوى، وتأمّل هذه الثنائيّة الضدّية: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها﴾ و ﴿قَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها﴾ يشعرنا بضرورة العودة إلى النّفس ومراقبتها وتهذيبها، ولأجل الخلاص ممّا تؤول إليه مفردة (الخيبة) من نتائج مدمرةً لحياة الإنسان وعاقبته، لأجل هذا لابدّ من التوجّه إلى طرف المقابل ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾.

وهنا نلج هذا الباب الوسيع تزكية النّفس، وهي الغاية والبغية التي يبتغيها كلّ من تنور قلبه بنور المعرفة والإيمان[2] فما الذي يشير إليه مفهوم تزكية النّفس؟ وكيف نهتدي إلى هذه التزكية؟.

حقيقتان مرتبطتان ارتباطاً جدليّاً: معرفة النّفس وتزكية النّفس، فمعرفة الذات حقّ معرفتها تقود إلى هذه الغاية التي عبّر عنها القرآن بقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها﴾. وهنا لا بدّ أن نعود إلى هذه الفطرة السليمة التي أوجدنا الله عليها أباحت لنا حبّ الذات ، فالموجود بحبّ ذاته، ومحبّة الذات خليقة بأن تحمل كلّ مخلوقٍ حيٍّ ولا سيّما الإنسان إلى معرفة ذاته وإدراك السبيل الذي يوصله إلى كمالاتها المتنوعة من مادّيةٍ ومعنويّةٍ.

(1) سورة الشمس، الآيات: ٧-١٠.

(2) معرفة الذات لبنائها الجديد: ٥.

وما دمنا نتحدّث عن الذات الإنسانيّة أو النّفس الإنسانيّة، فلا بدّ أن نقرّر مطمئنين أنّ التغافل عن معرفة النّفس وعدم تحري السبيل التي تؤدّي إلى تهذيبها وكمالها يعدّ أمراً خطيراً ، إذ هو انحرافٌ عمّا أراده الله لبناء النّفس الإنسانيّة ووقايتها، فلا بدّ- إذن- أن يصحّح هذا المسار الخاطئ، وأن نستبدل بالسّلوك الخاطئ سلوكاً صحيحاً يقوم على تحصين الذات، وتحقيق ما تصبو إليه من منافع من خلال المعرفة الحقيقيّة للنّفس؛ لأنّ المعرفة الحقّة مُقَدَّمَةٌ على كلّ ما يقوم به الإنسان.

إنّ أفعال الإنسان نفسه، أو تغافله عنها أمرٌ خطيرٌ ومدمّرٌ لحياة الإنسان وعاقبته، وقد حذّر القرآن الكريم سوء عاقبة مرتكبيه فقال جلّ ثناؤه ناهياً ومحذراً: ﴿وَ لا تَكُونُوا كَالَّذينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْساهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾[1].

هذه معادلةٌ مرعيةٌ طرفاها: نسيانهم خالقهم، وأنساهم الله أنفسهم تعبيرٌ بيانيٌّ ـ نهاية العبد ربّه ـ الجحود والتخلي عن الفطرة والإيمان.

يقابله سوء العاقبة المعبّر عنه بجعل هؤلاء الضالّين على نسيان حقيقتهم وفطرتهم وجعلهم يعمهون في السوء ويتخبطون في العمى لإعراضهم عن ذكر الله (نسيان الله)، ويرتبط بهذا المعنى قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْري فَإِنَّ لَهُ مَعيشَةً ضَنْكاً وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى*قالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَني أَعْمى وَ قَدْ كُنْتُ

(1) سورة الحشر، الآية: ١٩.

بَصيراً*قالَ كَذلِكَ أَتَتْكَ آياتُنا فَنَسيتَها وَ كَذلِكَ الْيَوْمَ تُنْسى﴾[1]

إنّ معرفة النّفس هي مفتاح التقرّب إلى الله سبحانه وتعالى، فكيف يتقرّب إلى الله من أغفل نفسه ونسيها، ففاقد الشيء لا يعطيه كما يقول المناطقة.

ولما كانت النّفس الإنسانيّة من أبرز تجلّيات خلق الله تبارك وتعالى لذا وجّه الباري الأنظار الى آياته في الآفاق وفي الأنفس في باب الوعيد ﴿سَنُريهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَ في أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾[2]. ولم لا، وقد أولى سبحانه آيات الأنفس عنايةً خاصّةً: «وفي أنفسكم أفلا تبصرون» لذا توجّهت الآية باللوم للذين لا يعون معرفة قدرة الله تعالى وآياته ومعجزاته في خلقه في (أنفسهم) أي في أعماق وجودهم.

ويطول بنا المقام لو رحنا نتقصّى ما قيل من كلام النبوّة والأئمّة الأطهار حول وجوب معرفة الإنسان نفسه والعمل على تهذيبها وترويضها على حبّ الخير والصلاح واتّباعها النهج القويم على شاكلة ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «من عرف نفسه عرف ربّه» وفي كلام أمير المؤمنين عليه السلام وفرةٌ ممّا يندرج في أنّ معرفة الإنسان نفسه أجرى المعارف وأحقّها بالاتّباع ، وممّا روى عنه قوله: «كلما زاد علم الرجل زادت عنايته بنفسه وبذل في رياضتها و صلاحها جهده»[3].

(1) سورة طه، الآيات: ١٢٤ـ ١٢٦.

(2) سورة فصلت، الآية: ٥٣.

(3) مستدرك الوسائل: ٢/ ٣١٠، نقلا عن معرفة النفس لبنائها الجديد: ١٦.

ونطالع في أدبنا _ في مختلف حقبه التاريخيّة _ تأكيداً على هذا المعنى، ففي عينيّة الشاعر أبي ذؤيب الهذلي تتأمّل الإشارة إلى ترويض النّفس في قوله:

والنّفس راغبةٌ إذا رغبتها وإذا تردّ إلى قليل تقنعُ[1]

وتقرأ في ميمية البوصيري في مدح رسول الله ﷺ قوله:

والنّفس كالطفل إن تهمله شبّ على

حبّ الرضاع و إن تفطمه ينفطم[2]

وجديرٌ بالذكر أنّ معرفة الذات لا يقصد بها المفكّر مصباح اليزدي المعرفة التفصيليّة لأجهزة البدن ومكوّناتها، وما يتعلّق معرفته بالعلوم الأخرى كالفسلجة وعلم النّفس وغيرها، إنّما المقصود معرفة الذات بشكلٍ عامٍّ والاهتمام بها كي تسلك سبيلاً صحيحاً على وفق الاستعدادات والطاقات التي تنظم مساعي الإنسان وتسلك به أيسر السبل للصواب وصولاً إلى ما يطلق عليه كمال النّفس»[3].

فالمقصود بمعرفة النّفس التي أرادها المفكّر مصباح اليزدي أن يعرف الإنسان هدفه في الحياة ، مستنداً في هذه المعرفة إلى ميوله واستعداداته، وألّا يخرج عن الهدف الذي من أجله خلق، وما يؤول إليه المصير الإنساني بعد الموت.

وما العلّة في ذلك اللقاء المرتقب (البعث) الذي أكّد عليه

(1) شرح أشعار الهذليين: ٤/ ١- ٤٠.

(2) ديوان البوصيري: ٢٥.

(3) معرفة الذات لبنائها الجديد: ١٦.

الباري تبارك وتعالى، وأمرنا أن نوقن به ﴿وَ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾[1].

فالدّعوة إلى معرفة الذات ليست دعوةً إلى الانعزاليّة والاعتكاف والعيش في معزلٍ عن الآخرين، وليست كذلك دعوةً إلى (الفرديّة) أو (الباطنيّة السلبيّة) و (عبادة الذات)، بل المقصود التأمّل ومراجعة النّفس والعمل على تهذيبها ما استطاع الإنسان إلى ذلك سبيلاً، عملاً بقوله تعالى: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَها﴾[2].

وجديرٌ ذكره أنّ المفكّر مصباح اليزدي قد استقى آراءه العميقة من ارتباطه الوثيق بالقرآن الكريم، وقد جاء في أحد كتبه: « إنّ القرآن بحر المعارف والعلوم الإلهيّة، ولا يقوى على سبر أغوار هذا البحر اللجي المترامي الأطراف واقتناص جواهره التي تصنع الإنسان إلّا الذين هم على ارتباطٍ بغيب عالم الوجود، وقد دعا الله عزّ وجلّ الناس لشقّ طريقهم نحو معارف القرآن السامية مستعينين بألطاف النبيّ صلى الله عليه وآله وأئمّة الهدى عليهم السلام...»[3].

المبحث الثاني
كمال النّفس

الكمال الذي قصده المفكّر اليزدي كمالٌ نسبيٌّ، إذ ليس هو الكمال المطلق الذي تفرّدت به الذات العليّة، ولا هو العصمة التي وهبها الله للأنبياء والأئمّة الطاهرين، إنّما هو كمال النّفس المتأتّي

(1) سورة البقرة، الآية: ٤.
(2) سورة البقرة، الآية: 286.
(3) تجلي القرآن في نهج البلاغة: ١٩.

من معرفتها وتهذيبها، وقد نوهنا بهذا في المبحث الأوّل. والكمالات صفوٌ وجوديّةٌ لذا تتباين في الموجودات، فقد يكون الكمال في نسبةٍ عاليةٍ في موجودٍ معيّنٍ، وقد يكون أقلّ من هذه النسبة في موجودٍ آخر، أو أنّ ما يعدّ كمالاً في بعض الموجودات قد لا يعدّ كذلك في موجودٍ آخر، فضلاً عن أنّ موجوداتٍ أخر لا تمتلك أيّ استعدادٍ لبعض الكمالات، لأنّها تمتلك حدوداً ماهويّةً خاصّةً بها، إذا تجاوزتها تتبدّل إلى موجوداتٍ أخرى ونوعٍ آخر من الوجود.

فلو حسبنا صفة (الحلاوة) كمالاً في بعضٍ الفواكه، في حين يكمن كمال فواكهٍ أخرى في حموضتها، وإذا قلنا أنّ العلم كمال الإنسان في حين لا يمتلك موجوداً آخر كالحجر والخشب أيّ استعدادٍ لهذا النوع من الكمال».

ولتوضيح حصول التغييرات الماهويّة في الموجودات يقول الشيخ اليزدي: «إنّ التغييرات الماهويّة قد تتمّ بعد تغيير شكل الجزئيّات أو زيادة الذرّات وقلّتها أو بعد التغييرات الداخليّة في تركيب الذرّة أو تبدّل المادّة إلى طاقةٍ أو العكس...»، فالكمال- إذن- مرتبكٌ بالماهيّة وطبيعتها واستعدادها لنوع من الكمال، وإذا تغيّرت الماهيّة قد لا تفقد كمالاً قبليّاً كانت بلغته قبل التبدّل والتغيير «فالكمال الحقيقي لأيّ موجودٍ عبارةٌ عن الصفة أو الأوصاف التي تقتفيها فعليّته الأخيرة، أمّا الأمور الأخرى فبمقدار تأثيرها في الوصول إلى الكمال الحقيقي، تكون من مقدّمات الكمال»[1].

ولتوضيح حصول التغيّرات الماهويّة في الموجودات يقول

(1) ينظر: معرفة الذات لبنائها الجديد: ٢١- ٢٢.

المفكّر مصباح اليزدي «إنّ التغيّرات الماهويّة قد تتمّ بعد تغيير شكل الجزيئات أو زيادة الذرّات أو قلّتها، أو بعد التغيّرات الداخليّة في تركيب الذرّة أو تبدّل المادّة إلى طاقةٍ أو العكس...»[1].

فالكمال- إذن- مرتبطٌ بالماهيّة وطبيعتها واستعدادها لنوع من الكمال، وإذا تغيّرت الماهيّة قد لا تفقد كمالاً قبليّاً كانت بلغته قبل التبدّل والتغيير «فالكمال الحقيقي لأيّ موجودٍ عبارةٌ عن الصفة أو الأوصاف التي تقتضيها فعليّته الأخيرة، أمّا الأمور الأخرى فبمقدار تأثيرها في الوصول إلى الكمال الحقيقي، تكون من مقدّمات الكمال»[2].

من كلّ هذا يتبيّن أنّ ثمّة كمالاتٍ متعدّدةً ومتباينةً مرتبطةً بالموجودات، فالكمال في الجمادات بوصفها موجوداتٍ نجده في الدرجة السفلى، ثمّ يكون الأمر تصاعديّاً عند النباتات فالحيوانات ويقع الإنسان في أعلى درجات الكمال، وقد قصد العلامة اليزدي بهذا التدرّج في الكمالات نوع الكمال وقيمته وأثره الفاعل في الحياة، لا حجمه ومقداره، ويضرب مثالاً لتوضيح هذه الحقيقة قائلاً: «ومن البديهي في مثل هذا التدرّج أنّ الملحوظ هو نوع الكمال وقيمته، لا حجمه ومقداره، ولذا فلا مجال للاعتراض علينا، بأنّه لو كان الإنسان أكمل الحيوانات، فلماذا لا يمكنه أن يأكل بقدر أكل البقرة، ويركض كالغزال ويفترس كالأسد تماماً؟»[3].

(1) المصدر السابق: ٢٢.

(2) المصدر السابق: ٢٣.

(3) المصدر السابق: ٢٥.

التكامل الإنساني

بعد ما تقدّم علينا أن نتلمّس ما يسمّى بـ (الحركة الاستكماليّة) التي تتعرّض لها الموجودات أو تحاول أن تمرّ بها عبر مسيرتها نحو كمالاتها.

إنّ هذه الحركة تعني التغييرات التدريجيّة التي تحصل في أيّ موجودٍ حسب استعداده للوصول إلى (الكمال)، وهذه التغيّرات تسيّرها القوى المودعة في خلقة هذا الموجود مع الاستفادة من الشرائط والإمكانات الخارجيّة، بيد أنّ الحركة الاستكماليّة تتطلّب (إدراكات)، وقد يكون الإدراك غريزيّاً كما هو عند الإنسان، وقد لا يكون كذلك كما هو عند غيره، وتقف الحركة الاختياريّة التي تميّز بها الإنسان عاملاً مهمّاً في بلوغ ما يصبو إليه وتلمّس السبيل الأمثل الذي يوصله إلى التكامل موضوع بحثنا.

لكنّ هذا الاختيار بوصفه سمةً منحت للإنسان يتوقّف على الوعي والقدرة على التمييز المتأتّي من استثمار العلم استثماراً أمثل، قد يصل بالإنسان إلى معرفة الكمال قبل الحصول عليه.

وفي هذا الصدد يقول العلامة اليزدي: «ولكن عندما نلاحظ الإنسان، هذا الموجود العجيب الملئ بالأسرار نجد أنّه رغم صغره النسبي في الحجم وشبهه في كثيرٍ من الأمور المادّيّة مع سائر الحيوانات رغم ذلك يمتلك خصائص تميّزه عن غيره تماماً»[1].

أجل فالإنسان، ومنذ بدء وجوده، لم ولن يتوقّف عن الحركة والتغيير والإبداع، فهو كالشجرة المثمرة التي يمثّل الإبداع والحركيّة

(1) المصدر السابق: ٣٤.

والفعاليّة الجانب المادّي لها.

أمّا الجوانب المعنويّة أو الروحيّة، فليس بمقدورنا أن نصل إلى فهمها وتفسيرها بقوانيننا المادّيّة، وليس من سبيلٍ إلى إنكارها، وصدق من قال: أتحسب أنّك جرمٌ صغيرٌ، وفيكَ انطوى العالم الأكبر.

إنّ تجاوز الإدراك الحسّي إلى الكمالات الروحيّة والفضاءات المعنويّة التي لا تقبل التجربة كلّها تندرج فيما أسميناه «كمال النّفس الإنسانيّة» التي كانت وما زالت موضع اختلاف الفلاسفة والعلماء، ولكن هذه الاختلافات الفلسفيّة حول (كمال الإنسان) لم يخض فيه العلامة اليزدي حرصاً منه على تقديم هذا الموضوع لقرّائه تقديماً مؤصّلاً ومؤثّراً، ممّا قلّ من كلامه ودلّ، ونحن بدورنا نوجزه:

إنّه ربط بين الكمال الإنساني وتمتّع الإنسان باللذائذ المادّيّة المباحة له (والمسخرة له) بالتعبير القرآني، وهذا (التسخير) أو التمتّع يعدّ أكبر مظهرٍ من مظاهر الكمال الإنساني، ولكي يصل الإنسان إلى هذا التمتّع أمر بأن يبتغي سبيل العلم والمعرفة للاستفادة من منابع الثروات الطبيعيّة لتحقيق الحياة المستقرّة والرفاه والتلذّذ به. فضلاً عن هذا إنّ كمال الإنسان يلحظ في رقيه الاجتماعي بوصفه كائناً اجتماعيّاً بالطبع، وقد وهب ما يحقّق له ذلك من نطقٍ وتفكيرٍ وإرادةٍ واختيارٍ وما إليها ممّا يندرج ويفهم من مضمون قوله سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[1].

(1) سورة التين، الآية: ٤.

اللّذة والكمال

الإنسان بفطرته يسعى إلى اللّذة ويهرب من الألم والعذاب، ولكنّه قد يسعى للحصول على لذّةٍ كبرى فيؤثر تحمّل الألم القليل أو الشقاء الطارئ للحصول على لذّةٍ دائمةٍ وراحةٍ أكبر، وقد يضطر أحياناً ليضحّي بلذّةٍ محدودةٍ في سبيل الحصول على لذّةٍ أكثر دواماً. فاللّذة – إذن– تكون دافعاً لنشاط الإنسان وسعيه، وقد تكون نتيجةً لهذا السعي الحثيث والمثابرة وتحمّل المشاقّ لإدراك هذه الغاية (اللّذة).

بيد أنّ هذا العمل أو السعي الذي يؤدّي بالإنسان إلى تجاوز آلام وعمل المشاقّ للحصول على اللّذة هو عملٌ اختياريٌّ إراديٌّ، لذا يمكننا أن نجد علاقةً وطيدةً بين اللّذة والإرادة. فقد يلتذّ الإنسان بالمروءة والجود، وهما فعلان مؤذيان، لكنّ سلوكهما يثير لذّةً معنويّةً عند الإنسان من ثوابٍ عند الله أو ذكرٍ حسنٍ وما إليهما، وهما يقعان (أي المروءة والجود) موقع الإرادة الإنسانيّة، ويحضرنا في هذا المقام قوله تبارك وتعالى: ﴿وَ يُؤْثِرُونَ عَلى أَنْفُسِهِمْ وَ لَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ﴾[1]، فما الذي حدا بهم إلى هذا الإيثار ؟ إنّه التلذّذ بما يؤول إليه فعل الخير عند الله الذي سيجزي عباده الجزاء الأوفى .

فهذا التوجّه لحصول لذّةٍ مادّيةٍ أو معنويّةٍ هو حبّ أو رغبة في فعل هذا العمل على الرغم من صعوبته، وقد نزل قوله تعالى الآتي في حبّ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في إطعام الطعام للمساكين

(1) سورة الحشر، الآية: ٩.

والأيتام والأسرى فقال عزّ من قائل: ﴿وَ يُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلى حُبِّهِ مِسْكيناً وَ يَتيماً وَ أَسيراً*إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُريدُ مِنْكُمْ جَزاءً وَ لا شُكُوراً﴾[1]، فتعبير على حبّه يوضّح هذا الارتباط بين اللّذة والإرادة والحبّ، وهذه هي اللّذة الأصيلة التي يبتغيها الإنسان والمتحقّقة في التعبير القرآني على لسان الإمام(عليه السلام)، ﴿إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ...﴾ وهو يواصل سيره نحو كمال النّفس، وهو الكمال الحقيقي الأصيل الذي نتوصّل إليه بعد معرفة اللذيذ الأصيل لا الفرعي أو المادّي أو الجانبي.

إذن، فما هي اللّذة الأصيلة، وما هي أسمى اللّذات الإنسانيّة وأشدّها دواماً؟

لا شكّ أنّ تحقّق حصول اللّذة لا يتمّ إلّا بوجود الملتذّ المدرك ووجود الملتذّ به. وأنّ دوام اللّذة مرتبطٌ بدوام ظروف تحقّقها كما يقول العلامة اليزدي أو هي كذلك، فإذا فنيت ذات الشيء المطلوب أو تغيّرت حالة المطلوبية أو تغيّر تصوّر طالب اللّذة أو اختلفت حالة التوجّه إليها، فإنّ اللّذة المفروضة سوف تتغير»[2].

وقد يطول بنا المقام لو فصّلنا القول في مفهوم اللّذة وأنواعها ومصاديقها والآراء التي قيلت في ذلك.

وحاصل ما نريد أن نعرضه في هذا الموضوع الوسيع مستندين إلى مفهوم المصباح اليزدي: إنّ اللّذة التي تحصل لنا أمّا أن تكون نابعةً من وجوده أو من كماله أو من الموجودات التي نحتاج

(1) سورة الإنسان، الآيتين: ٨– ٩.

(2) مغرفة الذات لبنائها الجديد: ٥٩.

إليها ونرتبط بها، فإذا نظر الإنسان إلى وجوده على أنّه وجودٌ عرضيٌّ زائلٌ لا محالة، وهو وجودٌ تعلّقيٌّ يرتبط بموجودٍ مطلقٍ تنتهي إليه كل الارتباطات والتعلّقات، وهذا الارتباط مغنٍ للإنسان عن كلّ شيءٍ، عند ذاك سيحصل على أسمى اللّذات، وهذا يقودنا إلى إدراك الإنسان أنّ وجوده مرتبطٌ كلّ الارتباط بالموجود المطلق واللّذة الأصيلة تحصل للإنسان من مشاهدة ارتباطه به، أو مشاهدة نفسه حال كونها متعلّقةً به وقائمة، أو هي في الحقيقة تحصل من مشاهدة إشعاع من جماله وجلاله (تعالى)[1].

على أنّ الإنسان قد تفرّد بأنّه يملك خواصاً لافتةً منها أنّه ذو ميولٍ ورغباتٍ غير محدودةٍ، إذ لا يقتنع بسعادةٍ مؤقّتةٍ، وهذه الخاصّية اللانهائيّة في ميوله تعدّ سمةً مميّزةً له عن الحيوان. غير أنّ هذه الميول اللامحدودة في النهاية ترتبط وتلتحم فيما بينها لتتّجه نحو الارتباط بالمنبع المطلق للعلم والقدوة والجمال والكمال، وهذه- يقول العلامة اليزدي- هي خاصّية مراتب الوجود، فإنّها مهما اشتدّت وقويت وتكاملت اتّجهت نحو الوحدة والبساطة»[2]. ولذا فإنّ ما يطلبه من ميولٍ فطريّةٍ_ والذي يمتدّ مداه باتّجاه اللانهاية، يتحدّ في النهاية مع سائر المطلوبات _ هو في الحقيقة شيءٌ واحدٌ ينظر إليه من زوايا مختلفة، و يبحث عن وجهات شتّى، وهو عبارةٌ عن الارتباط بالموجود المطلق اللانهائي الكامل، أي: القرب من الله

(1) المصدر السابق: ٦٢.

(2) ينظر: مغرفة النفس لبنائها الجديد: ٦٤.

تعالى[1].

وبهذا التوجّه يصل الإنسان _ في النهاية _ إلى المرتبة الأسمى حتّى أنّه يشاهد قربه من الله تبارك و تعالى ﴿في مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَليكٍ مُقْتَدِرٍ﴾[2]، و بهذا تحصل اللّذة الكبرى، وتشبع الميول والرغبات.

وكون الكمال الحقيقي للإنسان، ليصبح إنساناً بعد عبوره المرتبة الحيوانيّة، إذ خطا نحو القرب الإلهي خطواتٍ توصله إلى ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفازاً*حَدائِقَ وَ أَعْناباً﴾[3]، وإلّا فهو كما قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾[4].

ولنتأمّل كيف وصف القرآن الكريم أولئك الذين لا يريدون أن يفهموا ذواتهم، ولم يراقبوا أنفسهم ، قائلاً: ﴿أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ﴾[5].

تبيّن من هذا البحث الموجز أنّ إشباع الميل والاحتياجات الفطريّة الإنسانيّة لا يتمّ إلّا في ظلّ الارتباط الواعي بمبدأ الوجود، ودليله أنّ جميع الموجودات لها ارتباطٌ بموجدها الخالق، وأنّ حقيقة وجودها هي التعلّق به، والإنسان هو الآخر مرتبطٌ بخالقه، فإذا ارتبط الإنسان بذاته وراقب نفسه يصل إلى مبتغاه كما وضحنا مستندين إلى مضامين المفكّر مصباح اليزدي.

عبدالحسين طاهر الربيعي

(1) ينظر: المصدر نفسه والصفحة نفسها.
(2) سورة القمر، الآية: ٥٥.
(3) سورة النبأ، الآيتان: ٣١– ٣٢.
(4) سورة الأنفال، الآية: ٥٥.
(5) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.

فعلينا- بعد هذا كلّه- أن نراقب أنفسنا، ونحملها على التقوى والتحرّز والتورّع عن محارم الله- سبحانه وتعالى- «فالمجتمع المتمدّن في منظور القرآن الكريم هو الذي تظهر فيه هذه الصفة وتتجلّى.

ومن هنا نلاحظ القرآن الكريم يركّز عليها ويبيّن أنّها منبتٌ لكثيرٍ من الصفات الأخلاقيّة التي تدخل في صياغة المجتمع المتمدّن وبنائه...»[1]. وبتهذيب النّفس وبناء الذات على وفق ما أراده الله- سبحانه وتعالى- نصل إلى الكمال الإنساني، وهو ممكنٌ ومتاحٌ لمن اقترب من الله «يا أيها الانسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه» و (ملاقيه) هي قمّة الكمال الإنساني الذي أوصل الإنسان ليكون خليفةً في الأرض، وليكون مخدوماً من الملائكة وموردا لسجودهم ...

وبعد، فإني أقول: «وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين».

(1) معالم الحضارة القرآنية: ٨٦.

المصادر

- القرآن الكريم
- تجلي القرآن في نهج البلاغة، محمد تقي مصباح اليزدي، مركز الامام الخميني، ط١- ١٤٢٦
- تصحيح اعتقادات الامامية ، الشيخ المفيد ، تح: حسين دركاص ، دار المفيد للطباعة والنشر – بيروت، ط٢- ١٤١٤ه- ١٩٩٣م
- الحكمة المتعالية في الاسفار العقلية الاربعة ، صدر الدين الشيرازي ، دار احياء التراث العربي- بيروت، ط٣- ١٩٨١
- ديوان البوصيري: أبو العباس شرف الدين، تح: أحمد حسن بسيج، دار الكتب العلمية- بيروت، ٢٠٠٥
- شرح أشعار الهذليين: أبو سعيد الحسن السكري، تح: عبد الستار فراج، دار العروبة- بيروت
- كتاب العين، الخليل بن احمد الفراهيدي ، مؤسسة دار الهجرة- ايران، ط٢- ١٤٠٩
- محاضرات في الالهيات ، جعفر السبحاني، تلخيص الشيخ علي رباني كلبايكاني ، مؤسسة الامام الصادق عليه السلام ، قم – ايران
- مختار الصحاح ، محمد بن ابي بكر بن عبد القادر الرازي، دار الرسالة- الكويت، ط١- ١٩٨٣م
- مستدرك الوسائل ، الميرزا النوري، تحقيق ونشر: مؤسسة ال البيت عليهم السلام لإحياء التراث- بيروت، ط٢- ١٩٨٨م
- مفردات غريب القرآن للراغب الاصفهاني
- معالم الحضارة القرآنية، عقيل الحيدري، منشورات الاجهاد– قم،

ط١- ١٤٢٩- ٢٠٠٨م

- معرفة الذات لبنائها الجديد، محمد تقي مصباح اليزدي، ترجمة: الشيخ محمد علي التسخيري، مؤسسة البلاغ- بيروت، ط١- ١٩٩٣م